

قصة نشر تاريخ ابن قاضي شعبة

د. عدنان درويش (*)

يصدر قريباً الجزء الأول من تاريخ ابن قاضي شعبة عن
المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية بدمشق . وكان
الجزء الثالث من الكتاب قد صدر قبل ثلاث عشرة سنة (عام
١٩٧٧) عن المعهد نفسه !

الدكتور عدنان درويش محقق هذا التاريخ يحكي في
هذا البحث الموجز قصة نشره ، مشيراً إلى الأسباب التي
دفعته إلى إخراج الثالث أولاً . ويستهل كلامه بالتعريف
بالمؤلف وبعض كتبه ، والنسخ التي اعتمد عليها في
التحقيق .

ويؤكد أنه عازم بعون الله على إخراج الجزأين الثاني
والرابع على التتابع دون توان أو تراخ .

« المجلة »

(*) مدير التراث القديم في وزارة الثقافة السورية .

هذا التاريخ ألفه مؤرخ عالم دمشقي ، عاش نحو الثلث الأول من عمره في الربع الأخير من المئة الثامنة للهجرة ، يقول ابنه بدر الدين محمد بن أبي بكر بن قاضي شعبة معروفاً بأبيه في ترجمته :

« الشيخ الإمام العلامة ، شيخ البلاد الشامية وعالمها ومفتيها ومدرسها ، قاضي القضاة تقي الدين أبو الصدق أبو بكر بن الشيخ العالم الفقيه الفرضي المدرس شهاب الدين أحمد بن الشيخ الإمام العلامة شيخ الإسلام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن الشيخ الفقيه العالم القاضي نجم الدين عمر بن الشيخ الإمام الفقيه المصدّر شرف الدين فخر القضاة تاج الأئمة أبي عبد الله محمد بن القاضي الإمام العالم المصدّر كمال الدين شرف القضاة عبد الوهاب ابن القاضي الفقيه العالم القاضي جمال الدين محمد بن ذؤيب بن مشرف ، ابن قاضي شعبة ^(١) الأسدي الشافعي .

ولد بدمشق في ربيع الأول سنة تسع وسبعين وسبعمئة . . . وتوفي - رحمه الله - في يوم الخميس بعد العصر حادي عشر ذي القعدة سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة فجاءه » ^(٢) .

(١) « ابن قاضي شعبة » وهنا لقب المؤلف التقي أبي بكر وأبيه وأعمامه ، وجده وإخوة جده ، ثم من بعدهم أبنائهم من هذه الأسرة الأسدية . وقد لقبوا بذلك لأن نجم الدين عمر وهو أبو جد المؤلف أبي بكر أقام قاضياً في شعبة - قرية في جبل بنى هلال في حواري من بلاد الشام - مدة أربعين عاماً . وبذلك لا تكون « قاضي شعبة » حسب ورودها هنا في كلام البدر ابن قاضي شعبة لقباً لمشرف الجد الأعلى في نسب هذه الأسرة . وهذا ما يريد واضح الترجمة .

(انظر الضوء اللامع للسخاوي : ١١ / ٢١ ، ومعجم البلدان لياقوت « شعبة »)

(٢) التعريف مجتزأ من ترجمة مبسطة للمؤلف ، وضعها ابنه بدر الدين محمد بن أبي بكر ابن قاضي شعبة المتوفى سنة : ٨٧٤ للهجرة (الضوء اللامع : ١٥٥/٧ - ١٥٦) وجعلها في رسالة صغيرة تقع في خمس ورقات يضمها مجموع محفوظ في دار الكتب البرلينية وراء الرقم / ١٠١٣٠ / ووصفها ألفارت (w. Ahtwardt) في فهرسه ، وقمتُ بتحقيقها ونشرها في مقدمتي لتاريخ ابن قاضي شعبة المذكور .

وتابع ابن المؤلف في الترجمة يقول :

«ولزم الكتابة ، وكتب الكثير بخطه ، بلغ ما كتبه بخطه نحو مائة مجلدة ، منها ما هو نسخ ، ومنها - وهو الأكثر - تأليف له .»

ومضى البدر ابن قاضي شهبة يسرد أسماء مؤلفات أبيه التي تكاد تنحصر في فئتين : الفقه والتاريخ ، ولكن أكثرها في التاريخ ، ومنه كتب الرجال ، يقول :

«المنتقى من تاريخ الإسكندرية : المسمى (بكتاب الإعلام فيما جرت به الأحكام من الأمور المقضية في وقعة الإسكندرية) ، تأليف محمد بن قاسم بن محمد النويري) في مجلدين في نصف البلدي .

- منتقى من تاريخ دمشق لابن عساكر ، في مجلدين .
- المنتقى من نخبة الدهر في عجائب البر والبحر .
- المنتقى من الأنساب لابن السمعاني ، في مجلدة .
- طبقات النحاة واللغويين في مصنفين :
- (أ) أحدهما على السنين .

(ب) والآخر على الحروف سناه : التبيين في طبقات النحاة واللغويين ، كل واحد في مجلدة .

- ومناقب الشافعي وطبقات أصحابه ، إلى آخر سنة أربعين وثلاثمائة ، في مجلدة .

- وطبقات الفقهاء الشافعية : جمعها من تاريخ الإسلام للذهبي ، ثم ذيل عليها . في ثلاث مجلدات .

- والإعلام بتاريخ الإسلام : بدأ فيه من أول المئة الثالثة ، ووصل فيه إلى آخر المائة الثامنة .

- الذيل على تاريخ ابن كثير وغيره ...
- ومختصر هذا الذيل »

اجتزيننا في هذا المقام من مؤلفات ابن قاضي شهبة الكثيرة بما ذكره ابنه من مؤلفاته في التاريخ ، وتراجم الرجال باعتبارها من التاريخ . ولعل أهمها وأكثرها حفولاً وزخارة : الإعلام بتاريخ الإسلام ، وذيله على مؤرخي عصره ابن كثير وغيره ، ثم مختصر الذيل .

هذه التواريخ الحفيلة تجعل ابن قاضي شعبة يتسّم سدة الطبقة الأولى من مؤرخي القرنين الثامن والتاسع الهجريين في زمرة معاصره ورصيفه وصديقه الحافظ شهاب الدين ابن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢ هـ ومعاصره أيضاً تقي الدين المقرئ المتوفى سنة : ٨٤٥ هـ ، ثم في كتيبة المؤرخين الكبار الذين عاشوا في المئة الثامنة كالشمس الذهبي الحافظ المؤرخ المتوفى سنة : ٧٤٨ هـ ، وعلم الدين البرزالي المتوفى عام : ٧٣٩ هـ ، وشمس الدين الحسيني المتوفى سنة : ٧٦٥ هـ ، والعماد الحافظ ابن كثير المتوفى سنة : ٧٧٤ هـ ، ثم الحافظ شهاب الدين ابن حجي شيخ التقي ابن قاضي شعبة ، وتوفي سنة ٨١٦ هـ . وعنه أخذ فن التاريخ .

كان أبو بكر بن قاضي شعبة من ثقات هذه الطبقة ومحريهم . وعلى مقتضيات هذا المعنى في الاستقامة والتحرير وضع منهجه في تاريخه الذي ذيل به على تواريخ من تقدمه من مؤرخي الشام في المئة الثامنة : الذهبي ، والبرزالي ، وابن كثير ، والحسيني وغيرهم .

ونعود إلى كلام ابن المؤلف في ذكره لمؤلفات أبيه في ترجمته لنسمعه يقول :

« والذيل على تاريخ ابن كثير وغيره : كتب منه خمس مجلدات ضخمة إلى سنة عشر وثمانمئة ؛ وكتب كرايس متفرقة من ذلك نحو مجلدة إلى سنة وفاته ، لكن فقد من ذلك كرايس لم نجد لها بعد وفاته .

ثم اختصر هذا الذيل : فكتب منه مجلدين إلى سنة ثمان وثمانمئة ، وكتب منه كرايس بعد ذلك لوتم كان مجلدة أخرى » .

إذن فقد أخرج المؤلف من هذا المختصر مجلدين ، بيّض بعضاً منها وغادر بعضاً في السواد ، وارتضى لها أن يتداولها بين الناس . يقول ابنه أيضاً وكتبه في طرة المجلدة الثانية من هذا المختصر :

« وقف هذا المجلّد والذي قبله كاتبه ومؤلفه الشيخ الإمام العلامة تقي الدين أبو الصديق أبو بكر ابن قاضي شعبة الشافعي ، تغمدّه الله برحمته وأسكنه أعلى جنته بمنه وكرمه على أولاده الذكور ، وهم كاتبه وأخواه وعلى ذريتهم الذكور ، ثم على طلبة العلم الشافعية » .

حظيت بهذا المختصر ، وتورّقته فرأيت زخاراً حفيلاً عظيم الفائدة ، وقدمته بين يدي أستاذي الكبير العلامة المؤرخ نيكيتا إليسيف - له مني التحية

والاحترام - فارتضاه لي نصّاً أنهد إلى تحقيقه وإخراجه مادة للدراسة لإجازة (الدكتوراه) ، ومضيت ؛ وحين اجتمعت لي نسخة المخطوطة بعد نصب ظفرت منها بالمجلّد الثاني بخط المؤلف ، وأيست من أن أصيب المجلد الأول بخطه ، بيد أني غنيت عنه بنسخة فيها المجلدان ؛ الأول ، والثاني بخط تلميذ المؤلف ، واسمه خطاب العجلوني ، وعلى هوامش الصفحات في هذه النسخة يشيع خط المؤلف مضيئاً ، أو معدلاً ، أو مستدركاً ، أو حاذفاً ، أو معدلاً ، يعزز ذلك نصوص مقابلة مثبتة بخط المؤلف أيضاً . ثم أصبت نسختين أخريين ^(١) .

سررت بذلك غاية السرور إذ أصبت نسخة أمّاً لمجلدتي هذا الكتاب الضخم الحفيل . نهدت إلى إعداده للتحقيق ، وأنجزته نساخة وعرضته على أستاذه ، فحين رأى ضخامة حجمه ، وبلوغ صفحات متنة لواء الألفين خلا مستلزماته من تعليق وتحشية ، اقترح بصائب رأيه أن نجعل كل مجلد منه جزأين ، فيستقيم بذلك للكتاب أربعة أجزاء بتجزئتنا ، وتكون على النحو التالي :

أولها : يتبدى بأول التاريخ في سنة : ٧٤١ للهجرة حيث مقدمة المؤلف وبداية الذيل ، وينتهي في نهاية سنة : ٧٥٠ هـ .

وثانيها : بدايته بأول حوادث سنة : ٧٥١ هـ ، وينتهي حين ينتهي المؤلف من ذكره لوفيات سنة : ٧٨٠ هـ .

(١) اجتلبت أربع نسخ من المختصر تنسم بخلوص الأصالة وصراحة النسب :
أولها : وهي الأم ، بخط المؤلف ، تضم المجلد الثاني فقط من الكتاب ، وهي محفوظة في مكتبة أسعد أفندي في السلبيانية باستنبول ، وراء الرقم : ٢٣٤٥ .
ثانيها : أصيلة أم ، تعدل الأولى في الطبقة ، فعلى هوامش صفحاتها خط المؤلف كما ذكرنا في المتن . وتوعب المجلدتين للكتاب ، فأصبح الذيل فيها كاملاً ، وهي محفوظة في دار الكتب الوطنية بباريس في مجلدين رقمهما : ١٥٩٨ و ١٥٩٩ .
واعتمدت النسختين الأولى والثانية أصلاً في التحقيق .

ثالثتها : تتلو الأولين في المرتبة ، فقد كتبها ناسخها في العقد الخامس من القرن التاسع في حياة المؤلف ، تقع في مجلد واحد حفظ في دار الكتب الوطنية بباريس وراء الرقم : ١٦٠٠ .
رابعتها : تعدل الثالثة في الطبقة ، نقلها ناسخها من نسخة المؤلف ، وأنجزها نساخة في العقد الخامس أيضاً في حياة المؤلف ، إلا أن فيها خروماً . وهي محفوظة في مكتبة عارف حكمت بالمدينة ، وراء الرقم : ٩٥ تاريخ .

وثالثها : أوله بداية حوادث سنة : ٧٨١ هـ ، ونهايته آخر تراجم سنة : ٨٠٠ هـ .

ورابعها : يتبدى ببداية حوادث المئة التاسعة سنة : ٨٠١ هـ ، وينتهي في أواخر حوادث سنة : ٨٠٨ للهجرة حيث وقف المؤلف عن إكمال تبييض الكتاب كما ذكر ابنه حين حديثه عن مختصر الذيل .

وذلكنا الأجزاء الأربعة بلحق أسميناه (الكشاف) فيه تراجم الوفيات الواردة في الأجزاء الأربعة بعد ترتيبها على حروف المعجم ، مخرجة مختصرة غاية الاختصار . وفي الكشاف أيضاً شروح للمصطلحات الحضارية الواردة في الكتاب بعد ترتيبها على الحروف . وفيه أيضاً تعريفات بالأماكن والمدن الوارد ذكرها في هذا التاريخ .

وبذلك يستقيم هذا التاريخ الضخم في أربعة أجزاء متوازنة في الحجم ، ومساوية تقريباً للتجزئة التي اعتمدها مؤلف الكتاب ونساخه ، وذلك تيسيراً لنشره مطبوعاً ، وعزّزنا الأجزاء الأربعة بالكشاف المذكور .

ورأى أستاذي أيضاً أن نجتزي بالجزء الثالث من هذه التجزئة للكتاب ليكون مادة للدراسة وإعداد أطروحتي معتبراً في ذلك أمرين وجيهين :

أحدهما : أن الفترة التي يؤرخ لها ابن قاضي شعبة ويشتمل عليها هذا الجزء تقع في حياته ، فمولده في سنة : ٧٧٩ هـ ، والجزء الثالث يتبدى - كما ذكرنا - بأول حوادث سنة : ٧٨١ هـ ، وينتهي في آخر وفيات سنة : ٨٠٠ هـ .

وثانيهما : أن هذا الجزء هو الأول من المجلد الثاني الذي كتبه المؤلف ، وذكر ابنه أنه بخطه .

ومضت في إكمال تحقيق هذا الجزء ، حتى إذا ما تم نجاؤه اعتمده أستاذي عملاً أنال به الإجازة .

بعد ذلك نظر فيه الأستاذ العالم أندريه ريمون مدير المعهد الفرنسي للدراسات الشرقية بدمشق حينئذ فرّحه ليأخذ مكاناً بين منشورات المعهد ، وله مني عظيم الشكر ، واجتمع الرأي على نشره أن أمضي في استكمال تحقيق مابقى من أجزاء الكتاب وفق ما اعتمدناه من التجزئة لنشر بعده تبعاً دون

انقطاع ، وألزمت نفسي وعداً بذلك ، معتمداً على صدق عزمي وصحته على إخراج أجزائه متتابعة دون تراخ ، ولم أكن لأفطن أن الظروف قد لا تواتي ، وأن الرياح قد تجري بما لا تشتهي السفن .

ويصدر الجزء الثالث يسبق إخوته عام ١٩٧٧ ، وقد تجرّد عن المقدمة التي وضعتها لأستفتح بها الكتاب ، فقد كنت أرجأها لتكون في أول الجزء الأول . وبلغت صفحات الجزء الثالث هذا مطبوعاً أربعاً وستين وثمانمئة صفحة تشتمل على المتن والفهارس والمختصر التحليلي الذي صنفته لحوادث الجزء ونشرته بالفرنسية في الملحق .

وتتوالى الأعوام ، وأنا أراوح في مكاني ، تكبّلني العوائق العاتية ، وتقعدني عن المضي في إنجاز الوعد بتحقيق الأجزاء : الأول ، والثاني ، والرابع ، ومن ثم الذيل وفيه الكشف ، ولم يأل صديقي العالم المستشرق الأستاذ تيري بيانكي مدير المعهد في تلك الأيام جهداً مخلصاً في استنهاضي وحثي على إتمام العمل ، إلا أن المعوقات كانت أقوى وأشدّ أيداً من التّوق والنية والإرادة ، فتصدني عن ذلك ، وكم أنا حزين وخجل من صديقي ، وله مني أصدق الاعتذار وأخلص الشكر ، وأرجو أن يكون الجزء الأول الذي نجزت طباعته اليوم تكفيراً عما قصرت به في الأمس .

وبقيت تلك الأجزاء في رقدتها ، حتى أخذت هُوج رياح الإعاقة في السكون ، وافترت الظروف المتجهمة عن ابتسامة مواتة ، وكان ذلك من نحو ثلاثة أعوام ، كما كان صديقي الأستاذ المستشرق الباحث جيلبرت دولانو مدير المعهد الفرنسي ، والأستاذ جان بول باسكوال أمين المعهد للشؤون العلمية حينئذ لا ينفكان يستحسانني مشكورين على إخراج الأجزاء الباقية من الكتاب ، وأتاحت لي الظروف الاستجابة ، فرحت أكمل ما كنت بدأت .

واليوم أنجزت طباعة متن الجزء الأول ، وهو على وشك الخروج من المعهد الفرنسي للدراسات الشرقية في دمشق منشوراً إلى القراء الكرام بعد أخيه الجزء الثالث الذي سبقه إلى الصدور بنحو ثلاث عشرة سنة ، يصدر مفتتحاً بمقدمة مبسّطة ضافية فيها ترجمة ابن قاضي شعبة المؤلف بقلم ابنه محققة منشورة ، ومذيلاً بلحق يشتمل على مختصر تحليلي للحوادث والأخبار في هذا الجزء ، يتلوه ستة فهارس :

الأول : للأعلام المترجمين في هذا الجزء .
الثاني : للمصطلحات الحضارية التي تواضع عليها وتداولها أهل ذلك
العصر وجاءت في الكتاب .
الثالث : فهرس للأعلام الوارد ذكرها في المتن .
الرابع : فهرس للأماكن والبلدان وما في باب ذلك .
الخامس : فهرس للقبائل والأقوام والجماعات وما في بابها .
السادس : فهرس لأسماء الكتب الواردة في هذا الجزء .
وسيتبع الجزء الأول هذا والجزء الثالث أخوهما الثاني والرابع ، ومن بعدهما
الكشاف دون دوانٍ أو تراخٍ إن شاء الله وبِعونه وتوفيقه .

* * *